خواطر مدرسية عن الحلم والحرية والتربية وأشياء أخرى ...

مشهور البطران

يا إلهي كم هو جميل أن نحلم!

الحلم صنو الحرية وفسحتها، الحلم حالة عصيان الذات على ذاتها المنصاعة، حالة توق نحو تخوم المستحيل، كل حلم ممكن ما دام فيزيقياً في الزمان والمكان الأرضيين.

كتب بيساريف الروائي الروسي إلى صديقه لينين: "من دون الحلم لا يستطيع الإنسان أن يكرس نفسه للسياسة أو الفن أو العلم". ولأول مرة يعترف لينين أن الأيديولوجيا وبحجة الالتزام والجدية لا محل فيها للحلم".[1]

كل الصروح الأيديولوجية الكبرى بدأت بحلم وانتهت بكوابيس، دوماً ثمة دودة خبيثة تخترق الحلم وتحوله إلى كابوس. الدودة الخبيثة موجودة في كل زمان ومكان: قوة، سلطة، مؤسسة. الفرويدية هي الأخرى دودة تجز الحلم وترعاه رعي القوارض، تكوبسه إلى حالة من العصاب.

طالبات يكتبن أحلامهن

روان محمد طالبة في الصف الحادي عشر، كتبت: "أنا الآن في طريقي إلى القمر، أحلق بلا جناحين، أتلمس النجوم، ألتقط نجمة وأضعها في جيبي، أخيراً سأهبط على القمر، أتعمد أن أضع قدمي، حيث وضع أرمسترونغ قدميه، بصمة حذاء أمريكية، سوف أستبدلها ببصمة فلسطينية، لكن حذائي أصغر من حذائه، يبدو حذاؤه وكأنه يبتلع حذائي، سأدوسها مرات عدة. أنا الآن أتنقل على سطح القمر، هنا هبطت أبولو 11، هنا زرع العلم الأمريكي، في ظلاله سوف أضع عدة جماجم بشرية".

مريم عمر زميلة روان في الصف نفسه هي الأخرى كتبت:

"الحلم هو الشيء الوحيد الذي أملكه ويملكني، في الحلم أرى حريتي، لا أحد يجبرني على أن أحلم، ولا أحد يتحكم في أحلامي سواي. أحلامي كالطير، تحلق في مخيلتي. دعوني أحلم قليلاً.

حتماً سأجد ذات يوم هويتي التي طالما صبوت إليها منذ أن كنت طفلة انتهك حق أسرتها في العيش بحرية، حتى بات الهواء الذي نتنفسه شيئاً غير مسموح به. ذات يوم، سأقف أمام العالم أجمع وأقول لهم، أنا مريم عمر، أريد أن أعيش بحرية واستقرار في وطني. أحلامي حمامة تحلق، لكن لا أعرف إلى متى".

روان ومريم تؤكدان نبوءة نيتشه "إن أعظم الكلمات صمتاً هي المبشرة بالعاصفة، والأفكار التي تأتي على جناحي حمامة هي التي تقود العالم".[2]

لقد اخترت أن أبدأ من روان ومريم وبيساريف لأقول إنه كلما امتد بنا العمر تصغر أحلامنا وتسكت أسئلتنا وتكبت حريتنا. وحدهم الأطفال يسألون الأسئلة الكبرى، وحدهم الأطفال يحلمون ويحلقون في الأفضية ويلتقطون النجوم بأصابعهم ويخبئونها في جيوبهم، فما بالنا نحن الكبار لا نجيد الحلم؟ ما بالنا نضع رقيباً منا على ذواتنا، يراقب كل سؤال متلصص ويخنقه قبل أن يرى النور؟

هل المؤسسة شيء خارج الذات؟

من المؤكد أن ثمة مؤسسة خارجية، نحن نعرفها جميعاً، وهي موجودة منذ غابر الزمن، إنني أتحدث هنا عن مؤسسة أخرى، موجودة في حنايا الذات، في وعينا ولاوعينا، تعيش معنا لحظة بلحظة، إنها تمنعني أن أقرأ علانية كتاب **نزهة المشتاق** وكتاب **الروض العاطر**.

كنت أتعمد وأنا اقرأ مثل هذه الكتب في المدرسة أن أخفي الغلاف، حين يسألني أحدهم ماذا تقرأ؟ كنت أجيب على الدوام: لا تشغل بالك إنه كتاب في السياسة.

أحدهم ألح في طلب الكتاب، فغامرت وأعطيته الكتاب. حين قرأه شن هجوماً على الكتاب واصفاً إياه بـ "الكتاب الفضائحي المعري لشرف الجسد".

من الغريب أن هذا الزميل قرأ الكتاب كاملاً، كان بإمكانه أن يتخلى عن القراءة في أول لحظة عري. لكنه لم يفعل. زميلي هذا هو المؤسسة التي

ترعبني. حسناً سأحيل هذا الزميل على نيتشه مرة أخرى: "إن ما هو محرم تحريماً شديداً هو دائماً الحقيقة".

مفهوم الحرية من وجهة نظر شروق وزميلتها أزهار وآخرين

من الآن فصاعداً لست مضطراً للبحث في المعاجم والمراجع عن تعريفات للأشياء، كل ما أبحث عنه موجود عند الأطفال، فمثلاً طالبة في الصف الثامن اسمها شروق حيدر ترى أن الحرية هي "**أن لا تخاف**". بينما زميلتها أزهار نزار ترى أن الحرية "**أن تعيش مستقلاً**".

إن أي إضافة أو حذف لهذه التوصيفات ستخل بجمالها الطفولي حسب رولان بارت، الذي يرى أن جمالية النص تكمن في لغته الفطرية والملحة والتلقائية والودودة، حيث النص اللذيذ صوت طفولي يتموضع بين الكتابة والكلام.[3]

لا تسألوني ما الحرية، لأنني ربما لن آخذ بنصيحة رولان بارت وأبدأ بالتفلسف:

إنها الحرية، مطمح آمال البشر، ومهجع الأشواق الإنسانية، بها يتحقق نموذج "الإنسان الكامل الحر"، ومن دونها يغدو الإنسان آلة. إنها الشيء الذي لم يُجَرب بعد، ولم تتلمسها يد إنسان، إنها النموذج المسلوب عنوة منذ لحظة الكينونة الأولى. سؤال الحرية هو سؤال البشر في كل زمان ومكان، إنه أقدم سؤال عرفه الإنسان، إنه سؤال الكينونة منذ لحظة انوجادها، لقد أودعه الإنسان في رسوماته على جدران الكهوف منذ فجر التاريخ، وفي الملاحم والأشعار. إن كل فعل إنساني ما هو إلا سعي دؤوب للبحث عن الحرية.

سؤال الحرية يستدعي معه في اللحظة نفسها سؤال المعرفة، وهما معاً ما زالا يستنزفان السعي البشري نحو الكمال. الكمال المتحقق في الوعي والحرية والتطور.

أن لا تخاف يعني أن تعيش آمناً، أن تعيش مستقلاً، يعني أن لا تكون عبداً، في الدروس القادمة سوف أسأل شروق وأزهار عن الأشياء التي تخيف الإنسان وتجعل منه عبداً لغيره.

لا يستذهن مفهوم الحرية إلا في تقابل مع مفهوم آخر هو السلطة، فكل منهما يستدعي الآخر، يعطي للآخر شرعية الانوجاد، فحيثما تنوجد السلطة تتعرقل الحرية كممارسة وتنصاغ كمفهوم مأمول التحقق. سؤال الحرية هو انعكاس تناقضي لسؤال السلطة. السلطة هي القوة في حالة الشرعنة، ولكن شرعنتها لا تخفي قوتها، بل العكس تزيد من غلوائها وبطشها. أليس الدول الأكثر "ديمقراطية" هي الأكثر مسؤولية عن كوارث الحروب والقتل والدمار الذي فتك بالبشر؟

إن المدرسة مؤسسة، فهي إذن لا تختلف عن السجن من حيث هو مؤسسة، وكذا لا تختلف عن المصحات النفسية ومؤسسات الاقتصاد. السجن هو مؤسسة لإخضاع الخارجين عن القانون، وهنا تستدعى أسئلة من قبيل من هو الخارج عن القانون؟ وأي قانون؟ ومن وضعه؟ هذه الأسئلة دارت ذات يوم في خلد الأديب الروسي فيدور دوستويفسكي، وخلدها في رائعته الباقية **الجريمة والعقاب**.

يتساءل دوستويفسكي على لسان بطله راسكولينكوف: إن القانون الذي يحكم على اللصوص هو قانون جائر، فهو لم يكفل الأمن الغذائي لكل مواطن. وفي مكان آخر من الرواية نفسها يصرخ راسكولينكوف:

"إنكم تحاسبونني على قتل عجوز، فمن يحاسب نابليون الذي قتل مئات الآلاف من البشر في معاركه الدموية؟". من المؤكد أن لا أحد يحاسب نابليون لأنه هو الذي يصنع القوانين.

إن لكل مؤسسة -عدا عن القوانين الناظمة- أعرافاً تنمط الممارسات الإنسانية داخل المؤسسة، بحيث يبدو الخروج عنها هو خروج عن القوانين، أحياناً تنسحب هذه الممارسات خارج المؤسسة.

في فيلم "في الهواء الطلق" أحد كلاسيكيات السينما العالمية يقرر الطبيب الشاب أن يعالج مرضاه المحبطين والمعصوبين خارج المستشفى، إنه لا يعطيهم أدوية بقدر ما يعطيهم الأمل في الحياة، إنه لا يتعامل معهم كمرضى، بل كضحايا لظروف القهر الاجتماعي والسياسي، هؤلاء المرضى ينجون من عذاباتهم النفسية، ويتحولون بدورهم إلى أطباء نفسانيين، ولكن بدون شهادات جامعية. إن هذا التوجه يقوض أركان المؤسسة الطبية التي نصبت من نفسها سادناً على الصحة النفسية لأفراد المجتمع، لكن السلطة الأكاديمية تجرد الطبيب من شهاداته، لأنه ببساطة يقوض أركان مؤسسة نصّبت من نفسها سادناً للصحة النفسية.

البطل نفسه ولكن في فيلم آخر حمل عنوان "جماعة الشعراء الموتى" يقوض البطل الذي لعب دور المعلم أركان المدرسة، يهز معتقدات المجتمع حول دور المدرسة، أن يسرح بهم في الهواء الطلق وفي المغاور والكهوف ويقرأون الشعر على ضوء القمر، إنه يشككهم في المقررات والمدرسة والنظام، إنه ببساطة يحولهم من تلامذة قانطين مطيعين لإرادات آبائهم إلى تلامذة متسائلين عن دورهم وحياتهم ومصيرهم. ولكن المعلم يلاقي المصير نفسه الذي لاقاه في فيلمه "في الهواء الطلق".

أي إنسان نريد؟

إنه سؤال الحضارة والتربية والثقافة والحزب السياسي والعائلة والشركة، كل منها يحاول أن يعجن نموذجه وفق رؤيته، إنهم يبحثون عنه ليل نهار دون أن يجدوه، ولذا سوف تبقى عملية البحث عن هذا الإنسان أشبه بالبحث عن عمق المستحيل بتعبير دي ساد، الإنسان النموذج هو إنسان حبيس معتقلات النصوص والنظريات، مشنوق بحبال المثالية بما هي لعنة الواقعية كما وصفها نيتشه.

إنسان الواقع مفارق للمثال المنشود، فهو ليس إسبارطياً مفتول العضلات، ولا أثينياً حكيماً، إنسان الواقع منفي من جمهورية أفلاطون، ومن كل المدن الفاضلة، إنسان الواقع يصرخ في وجوه

كل هؤلاء ويقول لهم: لا أريد أن أكون إلهاً ولا شيطاناً ولا آلة، أنا أريد أن أكون نفسي، أنا إنسان الأرض، أحب النساء مثل مصطفى سعيد، ومتمرد مثل سعيد مهران وراسكولينكوف، أنا جبلة من ملائكة وشياطين ولصوص، أنا بابل سعيدة.

مدرسة سقراط "اجورا" L.Agora

من المدارس المثيرة للاهتمام هي مدرسة سقراط، إنها على أي حال مدرسة حرية بامتياز، فهي مدرسة متنقلة حيثما يكون سقراط نفسه، قد يكون مكانها السوق أو الساحة العمومية أو الطريق أو البيت. أما المريدون فهم المتجولون والباعة والتجار وصغار القوم والارستقراطيون، وليس فيها تلاميذ دائمون، فالحضور والاستماع متاح لكل عابر سبيل. وعليه، فلم يكن فيها مقرراً ثابتاً، إنما الحياة وأسئلتها اليومية المباشرة كانت مادة الدرس، والحوار فيها مشاع لكل مريد، وطريقة التدريس قائمة على السؤال والتأمل في الحياة بكل نبضها وضجيجها. ولم يكن سقراط يعتبر نفسه معلماً ولم يبتغ أجراً من وراء تعليمه، بل كان يعتبر نفسه ناشداً للحقيقة والفضيلة معًا، وتلك كانت مدرسته التي تخرج منها فلاسفة عظام من أمثال أفلاطون.

مدرسة الحرية.. مدرسة تولستوي نموذجاً

واحدة من أبسط المدارس التي عرفها تاريخ التربية هي مدرسة تولستوي،[4] إنها غرفتان من الطين والحجارة في قرية "ياسنايا بوليانا" الروسية. بدأت بمعلم واحد هو تولستوي نفسه وانتهت به، ولم تستدخل إلا مقرراً دراسياً واحداً هو في واقع الأمر مجموعة قصص ألفها تولستوي، أو جمعها من حكايات **ألف ليلة وليلة وكليلة ودمنة**. لم تعمر المدرسة إلا سنوات معدودة، وأغلقت بأمر من السلطات القيصرية.

ما الجديد الذي أضافته تجربة تولستوي في التعليم حتى نالت هذا المجد وخُلِّدت كواحدة من أهم التجارب في التعليم، ما من شك أنه أسلوب التعليم القائم على الحرية. ففي مدرسة تولستوي ما من دروس واجبة الحفظ، وليس ثمة عقوبات ولا مكافآت، كما لا يوجد مقررات موضوعة سلفاً. إنها ببساطة تتيح الفرصة لرغبة المتعلم في تعلم المادة التي يريدها، وتشجب فرض المناهج المقررة سلفاً دون أخذ رغبة الطفل بعين الاعتبار.

مشهور البطران – مركز القطّان

الهوامش

[1] جاكوبي، راسل (2005). **نهاية اليوتوبيا السياسة والثقافة في زمن اللامبالاة**، ترجمة فاروق عبد القادر، **سلسلة عالم المعرفة**، الكويت: المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، ص269.

[2] نيتشه، فريدريك (2005). **هذا الإنسان**، ترجمة مجاهد عبد المنعم، بيروت: دار التنوير.

[3] بارت، رولان (1998). **لذة النص**، ترجمة محمد خير البقاعي، القاهرة: المجلس الأعلى للثقافة.

[4] للاستزادة، انظر مقدمة رواية **الهجوم** (1987). ترجمة علي كاشف الغطاء، عمان: المؤسسة العربية للدراسات والنشر.

من ورشة "توظيف مسرح المضطهَدين في السياق التربوي".